المحاضرة التذكارية لبرنامج أنيس المَقدسيّ للآداب، يلقيها البروفسور سليم دكّاش اليسوعيّ، رئيس جامعة القدّيس يوسف في بيروت، وعنوانها "الجامعة الأميركيّة والجامعة اليسوعيّة في بيروت، العمق التاريخي لرسالتيهما التربويّة وآفاق المستقبل، في 8 تشرين الثاني (نوفمبر) 2017، الساعة السادسة مساءً، في قاعة محاضرات كوليدج هول B1، في الجامعة الأميركيّة في بيروت.

مدخل: عندما استقبلت الجامعة الأميركيّة الرهبان اليسوعيّين

أودّ بدايةً أن أتوجّه بالشكر العميق إلى الصديق الدكتور فضلو خوري، الرئيس السادس عشر للجامعة الأميركيّة في بيروت، منذ السنة 1866، التي أسّس خلالها الدكتور دانيال بلس الكليّة الإنجيليّة السوريّة التي ستصبح لاحقًا في السنة 1921 الجامعة الأميركيّة في بيروت والتي تنبّأ عنها بلس قائلاً : "إذا كان الله والبشر يرتضون بهذه المؤسّسة فإنّها سوف تصبح "أمهرست" أو "يل" Yale الشرق". (دانيال بلس إلى البروفسور ويليام تايلر، سوق الغرب، شباط 1862)، (BFP. ACA). فالشكر له إذ يستضيفني في هذه الأمسيّة لكي أتحدّث عن موضوع شيّق يتناول جامعتينا من حيث العمق التاريخي لرسالتيهما التربويّة وآفاق المستقبل. وإنّي أزيد من امتناني باتّجاه البروفسور نادر البزري الذي يستضيفني في إطار برنامج أنيس المقدسي للآداب، فآمل أن أكون في مداخلتي موافقًا مع تطلّعات هذا البرنامج.

أودّ أن أبدأ الحديث عن موضوع قلّما تمّ التطرّق إليه في السابق وله أبعاده ودلالاته وأصبح عمره أكثر من مئة سنة ولا بدّ من استذكاره وأخذ العبرة منه لأنّه كان حدثًا

بدّل العلاقة بين الكليّة الإنجيليّة والجامعة اليسوعيّة. في السنة 1914 أغلقت السلطات العثمانيّة جامعة القدّيس يوسف وحوّلتها إلى ثكنة عسكريّة حتى إنّ الكنيسة المعروفة تحت اسم القدّيس يوسف في بيروت تحوّلت إلى مركز إداريّ إذ هُجّر الآباء اليسوعيّون خصوصًا الفرنسيّون منهم نظرًا إلى ارتباط الجامعة بالدولة الفرنسيّة، من ديرهم في بيروت وهو دير الجامعة في شارع الجامعة ولم يعد لهم بيتٌ يلجأون إليه. بعض المشرقيّين من الآباء بقوا قابعين في أبنية تابعة للجامعة مثل الأب صالحاني والأب لويس شيخو مؤسّس المكتبة الشرقيّة الذي استطاع أن يفرض نفسه حارسًا عليها وعلى مكتبة المخطوطات الثمينة فيها. فإلى أين رحل الآباء الفرنسيّون اليسوعيّون ومن استضافهم سوى المرسلون المسيحيّون في الجامعة الأميركيّة ؟ يقول فريديريك بلس في رسالة كتبها في 30 تشرين الثاني (نوفمبر) 1914 : "هل تتصوّرون أنّ بيت الدكتور بوست في الجامعة الأميركيّة قد تحوّل إلى ملجأ للآباء اليسوعيين وللإخوة الفرنسيّين حيث أكلوا وشربوا في قاعة طعام الويست هول ؟ ذلك ما حدث بالتمام. أمّا جامعة القدّيس يوسف الجليلة مع مكتبتها العظيمة ذات المئة ألف كتاب فهي اليوم غنيمة الحرب بين أيدي الأتراك. ولقد توزّع الآباء في الحَرَم، وجُلّهم يسكن في مختلف أبنية الجامعة، وهم ممتنون لتلك الضيافة". (Fred Bliss, Letter November 20th, 1914, Howard Bliss Collection AUB, Archives). ويُضيف مقال آخر في الموضوع نفسه إنّ "بعض طلاّب جامعة القدّيس يوسف التحقوا بكليّات الكليّة السوريّة الإنجيليّة ليكملوا دراساتهم فيها" (Vahid Behmardi, Djemal Pacha and the Syrian Protestant College during the World War, Al Abhath Magazine 2002-2003, p. 147-148.).

تلك الكارثة التي حلّت على الجامعة اليسوعيّة في السنة 1914 حتى السنة 1919 وهي التي كانت قد أطلقت في السنة 1913 كليّتي الحقوق والهندسة كمدرستين فرنسيّتين، وجدت من يخفّف من عنائها في شخصيّات الإرساليّة الأميركيّة وبالتحديد عبر زملاء لها في الجامعة الأميركيّة. لا أودّ أن أتوقّف كثيرًا عند أحد الدوافع التي استخدمها المرسلون المشيخيّون واليسوعيّون لجمع التبرّعات ولإنشاء الكليّة البروتستنتيّة السوريّة وجامعة القدّيس يوسف في بيروت من حيث تخويف الواحد من خطر الإنتشار البروتستنتي البيبليشي في جبل لبنان والشرق، والثاني من خطر إطباق الكاثوليكيّة البابويّة على مسيحيّي الشرق قاطبة ! فهناك أدبيّات عديدة وصفحات كثيرة تتحدّث عن نظرة العداوة المتبادلة بين الفريقين نعرفها جيّدًا إلاّ أنّنا نتركها للتاريخ فنجمع اليوم عمّا يوحّد ويُدخل في الحوار البنّاء لا عن الفرقة والتباعد.

مقدّمة : البدايات

في مذكّرات وملفّات دانيال بلس التي نشرها ابنه، نقرأ إنّه بتاريخ 27 كانون الثاني (يناير) 1862، قرّرت اللّجنة الإحترازيّة للمجلس الأمريكيّ في بوسطن إقامة "مؤسّسة أدبيّة تتّسم بمستوى رفيع وعالٍ" للأسباب التالية : "بسبب التماس منطقة الشرق الأدنى كان إنشاء مؤسّسة ذات مستوى عالٍ أمرًا لا مفرّ منه، وكان من الضروري أنّ يكون أوّل من يبادر إلى إنشائها من البروتستانت وليس من اليسوعيين."[1]

1. Bliss, Daniel, 1823-1916, The reminiscences of Daniel Bliss p. 167-168. https://ia600203.us.archive.org/1/items/cu31924011492463/cu31924011492463.pdf

نتذكّر أيضًا النكتة الشهيرة التي قالها كورنيليوس فان ديك Cornelius Van Dyck الذي أعلن، وهو في طريقه نحو صيدا، أنّه يتّجه إليها من أجل "إنشاء أربع مدارس". وأشار إلى محاوريه المستغربين أنّه سيُنشئ مدرستين، واحدة للبنين وواحدة للبنات وأنّه على يقين من أنّ الفرنسيين سوف يفعلون الشيء نفسه على الفور ويفتحون في صيدا مدرسة للبنين وأخرى للبنات. وهكذا، [يختم] قائلاً: "سأكون مسؤولاً عن إنشاء 4 مدارس"[2]. ولكنّ الطبيب البارز والمستعرب كان مخطئًا، عن علم أم من دون علم: كان اليسوعيّون قد سبقوهم. فالمدرسة اليسوعيّة في صيدا افتُتِحَت في العام 1855 ومنذ العام 1862، مع مقرّ إقامة هو بمثابة مركز إشعاع مؤثّر في جبل عامل.

باختصار، سوف تفهمون : كما لاحظ العديد من الباحثين، نوعًا من المحاكاة – أنا أستخدم هذا المصطلح بدلاً من "التنافس" أو "المنافسة" الذي لا يتوافق مع وجهة نظري، كما يبيّنه حضوري اليوم بينكم – توجد محاكاة بين مؤسّستينا، ويسعدني ذلك لأنّها تعود بالنفع على المجتمع المحلّي وتساهم في بقاء لبنان وتأثيره الإقليميّ والدوليّ، اليوم كما في القرن التاسع عشر عندما تمّ إنشاء المؤسّستين.

فمنذ بداية القرن العشرين، "كان لبنان إلى حدّ بعيد أحد مناطق الإمبراطوريّة العثمانيّة الأكثرَ تقدّمًا في مجال التعليم الشعبيّ. وكان محو الأمّية منتشرًا جدًّا في البلاد، ولا سيّما في جبل لبنان وبيروت وصيدا وطرابلس"[3]. أذكر الراحل كمال صليبي الذي لست بحاجة إلى تقديمه، والأستاذ في جامعة القدّيس يوسف، الراحل سمير قصير الذي اغتيل

2. ["Well," he retorted, "I shall set up one school for boys and one for girls. The French are sure to follow suit with one school for boys and one for girls, and so I will have been responsible for establishing four schools."] https://www.aub.edu.lb/ulibraries/about/Pages/beginning.aspx

3. Kamal Salibi, *Histoire du Liban du XVIIe siècle à nos jours*, Paris, Naufal, 1988, p. 248.

في العام 2005، يلفت انتباهنا إلى حقيقة أنّ "بين روما وبوسطن... تصبح بيروت المستوعب المفضّل في بلاد المشرق لهذا التخصّص ... ويبدو نشاط المرسلين في طليعة المهارة نفسها التي يجري بلورتها ... مع ما يصاحب ذلك من تطوير للتربية الجامعيّة في الغرب"[4]. هذا التجديد، وهذا البحث عن التميّز الأكاديميّ، كما هو معبّر عنه اليوم، يقوم على تقدّم العلوم ؛ وفي منطقتنا على وجه الخصوص، يقوم أيضًا على التجديد الدينيّ وعلى البعثات الرسوليّة. وإنّي أقدّم لكم رقمًا واحدًا تستطيعون من خلاله فهم الواقع التربوي الذي أنشأه المرسلون في نهاية القرن التاسع عشر. فبحسب مجلّة "المقتطف" كان هنالك 1473 مدرسة عاملة في ذلك الوقت، ستّون بالماية منها للإرساليّات الكاثوليكيّة وأربعون بالماية للإرساليّات الإنجيليّة.

وسأعود إلى هذه الطريق الطويلة والمسارات التاريخيّة الموازية للمؤسّستين أوّلاً، وعلى تحدّياتهما المشتركة اليوم. والعرض الإجماليّ الذي أقترحه لا يصبو بأيّ حالٍ من الأحوال إلى الشموليّة، لأنّه يكاد يكون من المستحيل عرض مساهمات كلّ من الجامعتين، وهي مساهمات غنيّة جدًّا في مختلف المجالات منذ إنشائهما. المقصود من هذا التوليف أو العرض الإجماليّ أن يكون تفكيرًا من أجل فتح النقاش حول ماضينا، بل وأكثر، حول مستقبلنا.

4. Samir Kassir, *Histoire de Beyrouth*, Fayard, Paris, 2003, p. 241 et 240.

القسم الأوّل : علامات مضيئة من زمن التأسيس

أ – الجامعة الأميركيّة في بيروت

لقد عبّر الرئيس الأوّل للجامعة الأميركيّة دانيال بلس، عند وضع الحجر الأساسي للبناية الأولى الرئيسيّة فيها السنة 1871، عن سياستها التعليميّة الحرّة وعن غايتها النبيلة بقوله: "إنّ هذه الكليّة تفتح أبوابها لجميع الطلاّب على اختلاف ظروفهم وطبقاتهم من دون أي اعتبار للون أو التابعيّة أو العرق أو الدين. ويستطيع كلّ إنسان، سواء أكان أبيض أم أسود أم أصفر، وسواء أكان مسيحيًّا أم يهوديًّا أم مسلمًا أم وثنيًّا، أن يدخل هذه الكليّة ويفيد من كلّ ما تقدّمه هذه المؤسّسة من خدمات مدّة ثلاث أو أربع أو ثماني سنوات ويخرج منها وهو يؤمن بإله واحد أو بآلهة عديدين أو ملحدًا لا يؤمن بإله. ولكن يستحيل على أيّ إنسان أن يقيم بين ظهرانينا على أرض هذه المدرسة مدّة من الزمن من دون أن يعرف الحقيقة التي نؤمن بها ومن دون أن يعرف الأسس والأسباب التي تدعونا إلى هذا الإيمان بالحقيقة".

يقول الدكتور فيليب حتّي في "تاريخ لبنان منذ أقدم العصور التاريخيّة إلى عصرنا الحاضر"، والدكتور حتّي هو من قدامى كليّة الفنون في الجامعة الأميركيّة، إنّ الجامعة تجلّى حرصها في الحفاظ على التراث القومي في جعلها اللّغة العربيّة لغة التدريس في بادئ أمرها (ص. 552) وذلك كتبه دانيال بلس في الشرعة الأساسيّة للجامعة عند نشأتها. " لكنّها، يقول حتّي مستندًا إلى كلام بلس نفسه، اضطرّت للتخلّي عن هذا التقليد الجميل على حدّ قول بلس نفسه، لأسباب عديدة منها تنوّع الجنسيّات التي كانت تتمثّل على أرض الجامعة، ومنها صعوبة إيجاد المعلّمين من ذوي الخبرة الكافية

في اللّغة العربيّة، وصعوبة إيجاد الكتب المدرسيّة وتخلّف العربيّة ذاتها عن اللحاق بمركب العلوم والفلسفة (Bliss Reminiscences p. 215). والواقع أنّ الهيئة التعليميّة الأولى كانت تدرِّس باللّغة العربيّة الفلسفة والأخلاق على يد دانيال بلس نفسه في حين أنّ كورنيليوس فان دايك كان يدرّس علم الفلك ويدرّس فيرن اللغة الفرنسيّة وناصيف اليازجي اللّغة العربيّة وأسعد الشدودي الحساب والعلوم. ويقول بريان فان ده مارك في كتابه "الشيوخ الأميركيّون" "إنّ الكليّة على نقيض المدارس الدينيّة كانت تشدّد على التفكير العقلاني والنقدي أكثر من الحفظ غيبًا. إنّها لم تكن تملأ رؤوس الطلاّب بالمعلومات بل إنّها كانت تعلّمهم كيف ينظّمون المعلومات ويفسّرونها. أمّا بلس فإنّه كان يعرف كيف يصل إلى عقول الطلاّب وكيف يؤثّر فيها. إنّه كان يجبرهم على التفكير عاليًا في الصفّ ويحثّهم على المناقشة الحرّة في كلّ موضوع (ص. 49)". الكليّة السوريّة الإنجيليّة تحوّلت إلى اسم الجامعة الأميركيّة في بيروت في الثامن عشر من شهر تشرين الثاني (نوفمبر) من السنة 1920. وبخصوص التعليم باللّغة العربيّة فإنّ قسم الطبّ في الجامعة الذي انطلق في السنة 1867 إعتمد أيضًا هذه اللّغة في التعليم وكانت المراجع والكتب تأتي من القاهرة وكان وضَعها كبار الاختصاصيّين المصريّين في بداية القرن التاسع عشر. وقسم الطبّ هذا كان على مستوى رفيع وعلى أربع سنوات في حين أنّ الجامعات الأميركيّة في أميركا كانت تكتفي بثلاث سنوات من التعليم. أمّا في ما يخصّ مجال التطبيق العلمي، فإنّ الخيار وقع على المستشفى البروسي في بيروت. إلاّ أنّ تقدّم التكنولوجيا الطبيّة في الغرب وعدم لحاق الشرق بها وكذلك الإكتشافات الحديثة في هذا المضمار

دفعت الجامعة للتخلّي عن التعليم باللّغة العربيّة حيث انتقل التعليم نهائيًّا في قسم الطبّ في السنة 1883 إلى اللّغة الإنكليزيّة مُنهيًا تجربة فريدة من نوعها في هذا المجال.

لا شكّ أنّ اعتماد اللّغة العربيّة لغة تدريس أساسيّة ترك الأثر الواضح في النفوس وشكّل رسالة قويّة إلى العرب أنفسهم وزرع وعيًا قويًّا ثقافيًّا تمثّل في تحديد الدراسات باللّغة العربيّة الكلاسيكيّة والتاريخ والآداب والشعر على أنواعها. ولقد أسّس هذا الانفتاح الواسع على اللّغة العربيّة توتّرًا واسعًا بين التقليد المحافظ والحداثة. يقول بايارد جورج في هذا المجال: إنّ الكليّة وفّرت جوًّا من حريّة التفكير وحريّة المناقشة ساعد في ولادة القوميّة العربيّة وأتاحت الفرصة لهذه القوميّة بأن تتعزّز، بحيث نستطيع القول بأنّ فكرة القوميّة العربيّة نشأت إنطلاقًا من الكليّة" (53 Quoted in Kaplan, Arabists p.37).

ب– جامعة القدّيس يوسف

كما الرهبانيّات الأخرى العديدة في القرن التاسع عشر، شهدت رهبنة القدّيس إغناطيوس تزايدًا في عدد مرسليها بعد عودتها إلى العمل في أوروبا في السنة 1813: من حوالى المئة [في روسيا] نحو العام 1803تحت حماية الأمبراطورة كاترين الثانية، أصبح اليسوعيّون 2137 في العام 1829، و 7734 في العام 1864 وأكثر من حوالى 15.000 نحو العام 1900[5].

5. EDDE compte rendu : Verdeil, *La Mission jésuite du Mont-Liban et de Syrie (1830-1864)*, Paris, Les Indes Savantes, 2011, *Tempora - Annales d'histoire et d'archéologie*, Faculté des lettres et des sciences humaines, Université Saint-Joseph, vol. 20.

الرسالة اليسوعيّة في جبل لبنان وسوريا (1830–1864).

وصلت الذروة في منتصف الستينات من القرن الماضي مع 36،000 يسوعيّ. وهم يشكّلون الرهبنة الأوسع انتشارًا للذكور.

http://www.marquette.edu/faith/about-the-jesuits.php

في هذا الإطار نشأت البعثة السوريّة الجديدة للرهبنة اليسوعيّة بطلب من البطاركة الكاثوليك في لبنان واستقرّت هذه البعثة في عين تراز للإهتمام بدروس الإكليريكيّين، وإن بدأت هذه الأخيرة بشكلٍ متواضع جدًّا.

الأب ريكادونا Riccadona الايطاليّ، والأب بلانشيه Planchet الفرنسيّ، والأخ هانز Henze الطبيب الألماني، قدموا إلى بيروت في 14 تشرين الثاني (نوفمبر) 1831. كانت البدايات في غاية الصعوبة حيث أنّ اليسوعيّين، التابعين لرهبنة دوليّة، لا يستفيدون من دعم إحدى القوى الأوروبيّة المؤثّرة في الإمبراطوريّة؛ فرنسا كانت حينئذٍ حامية العازاريين الذين كانت تعتبرهم باريس الإنجاز "الفرنسيّ" بامتياز في ذلك العصر. عاش المرسلون الثلاثة في التجرّد الكامل وغالبًا ما لم يأكلوا ليسدّوا جوعهم.

إذا كانوا قد قدموا مع فكرة تنشئة الأكليروس الكاثوليكيّ المحليّ، أو حتّى لتبشير المسيحيين المحليين، تمّت بسرعة مراجعة أولويّاتهم وتعديلها. وبالفعل، يعتقد الأب ريكادونا، المسؤول عن البعثة الإرساليّة اليسوعيّة، أنّ "الحاجة الأولى لهذا الشعب هي التعليم". إنطلاقًا من العام 1837، بدأ إنشاء المدارس بالتتابع وبوتيرة سريعة. سوف يتمّ أيضًا إنشاء المطبعة الكاثوليكيّة وقد أخذت في طباعة الكتب الدينيّة الروحيّة ومنها الطبعة اليسوعيّة للكتاب المقدّس، وعملت أيضًا على طباعة الكتب المدرسيّة. فالتربية اليسوعيّة كانت تعتمد ولا تزال على نظام تفاعلي بين الأستاذ والطالب، يستند على تصوّر إنساني (Humaniste) يستند على الركائز التالية : تربية الثقة في الذات وفي الله، والتربية الشموليّة التي تتناول الفكر والعقل والقلب والجسد، والحوار بين الإيمان بالله والثقافة، والانتباه إلى كلّ طالب بمفرده وبحسب قدراته (Cura personalis)، واحترام

الحياة ونموّها، وتوجيه مكتسبات الطالب نحو خدمة الإنسانيّة وخاصّة الفقيرة منها والمحرومة، والتمرّس على القِيَم العمليّة والشموليّة، والرغبة الدائمة في التفوّق (magis)، والنظرة إلى المعلّم كمرافق للطالب، وأهميّة التفكير الصائب بَدَل حشو الرأس بغير ذي فائدة، والتعلّم التعاوني وتعلّم التكيّف مع الظروف والأحداث.

الأولويّة الأخرى، تلك التي ساعدت المرسلين على إقامة مكان في المجتمع المحليّ، هي الطبّ. أصبح الأخ هينز Henze الطبيب الشخصيّ للأمير بشير الثاني شهاب (1798-1840) ؛ وصلت سمعته إلى اسطنبول حيث تمّ استدعاؤه لأكثر من مرّة لمعالجة مرضى كانوا أشخاصًا بارزين. نمت البعثة الإرساليّة في سوريا، وكان عدد أعضائها قد بلغ حوالى الستّين في العام 1864. في العام 1843، أقرّ الرئيس العام مرسوم إلحاق بعثة سوريا بمقاطعة "ليون" Lyon الفرنسيّة. سمح القرار للبعثة الإرساليّة بالاستفادة من ثروات الموارد البشريّة والماليّة لهذه المقاطعة مع الحثّ على اعتماد اللّغة الفرنسيّة كلغة للتعليم والتقارب مع فرنسا.

منذ العام 1862، طلب الأب كانوتي Canuti نقل الإكليريكيّة التي تأسّست في غزير إلى بيروت بعد حوالى عشرين سنة: "كانت بيروت قد أصبحت مدينة هامّة تتطلّب سلسلة من المدارس أعلى مستوى من تلك الموجودة حاليًّا. مرّة أخرى، في العام 1869، كتب الأب بدور Badour إلى الرئيس العام الأب بيكس Beckx: "أعلّق أهميّة كبرى على التعليم والتدريس الذين يتمّان بشكلٍ صحيح في هذه المدينة التي أصبحت مركز سوريا بحيث لا أتردّد في ربط مستقبل الكاثوليكيّة بهذه المناطق".

تقرّر الإنتقال من غزير إلى بيروت في العام 1870. كانت المرحلة الأولى تكمن في شراء أرض وبناء مبانٍ مناسبة لأنّ قاعات مقرّ اليسوعيّين ومدرستهم في بيروت لم تكن كافية. تحدّد الخيار على أرضٍ تقع عند أطراف المدينة، واليوم هي في قلب المدينة. تمّ التفاوض في السنة نفسها على حيازتها وذلك بأكبر قدر من السريّة. من أجل تمويل البناء، خطرت ببال الأب أمبراوز مونو Monnot فكرة التوجّه إلى الكاثوليك الأمريكيين والكنديين كما فعل دانيال بلس. مع الأب فرانسوا-كزافييه بايو François-Xavier Pailloux، سافر إلى الولايات المتّحدة وكندا بين الأعوام 1871 و 1873؛ وتحتفظ المحفوظات بأسماء 80،000 شخص وافقوا على المساهمة في "البعثات الإرساليّة الشرقيّة للرهبنة اليسوعيّة" ؛ عادوا إلى بيروت في 18 تشرين الثاني (نوفمبر) 1873 وبدأت للتوّ أعمال البناء. في 3 تشرين الثاني (نوفمبر) 1875، بدأت المحاضرات تُعطى في المبنى الجديد الذي ضمّ بشكلٍ سريع كليّة اللاهوت والفلسفة.

يعود تاريخ فكرة إنشاء كليّة للطبّ لتنشئة أطبّاء "للشرق" إلى العام 1872 على الأقلّ؛ كانت الفكرة مدعومة بالقنصليّات الفرنسيّة في بيروت. في أيلول (سبتمبر) 1881 تمّ الإعلان العامّ عن قرار تأسيس كليّة للطبّ والصيدلة في بيروت، من خلال شراكة بين الرهبنة اليسوعيّة والحكومة الفرنسيّة. نشأت الكليّة الفرنسيّة للطبّ في العام 1883. وعُهِد إلى اليسوعيين إدارتها ؛ واحتفظت الحكومة الفرنسيّة بمسؤوليّة الدروس. تمّت إضافة كليّة الصيدلة في العام 1889؛ ثمّ أتّخذت اسم كليّة الطبّ والصيدلة. في العام 1898، وعلى إثر مفاوضات مطوّلة أجراها مستشار الكليّة، إعترفت الدولة العثمانيّة للمؤسّسة بلقب وامتيازات كليّة يحصل بموجبها الأطبّاء والصيادلة في جامعة القدّيس

يوسف من الآن وصاعدًا على دبلوم مزدوج: دبلوم الدولة الفرنسيّة ودبلوم الدولة العثمانيّة. إنضمّت لجنة عثمانيّة من الكليّة الإمبراطوريّة في اسطنبول إلى هيئة المحلّفين الفرنسيين لاجتياز الإمتحانات[6].

ما تجدر إليه الإشارة أنّ كليّة الطبّ والصيدلة من الكليّة البروتستانتيّة السوريّة لم تحصل على الإعتراف العثمانيّ إلاّ في السنة 1907 على إثر الطلبات الملحّة الموجّهة من المرسلين إلى قنصليّة الولايات المتّحدة التي قامت بدورها بالضغط على السلطة في إسطنبول. وعندما نراجع صفحات التاريخ كما فعل الرئيس الأسبق الراحل جان دوكرييه في كتابه عن المؤسّسات الطبيّة في الجامعة اليسوعيّة نجد أنّ من دوافع إنشاء مدرسة الطبّ الفرنسيّة والجامعة بشكل عامّ فنتوقّف عند التالي : أوّلاً خيار بعض العائلات المارونيّة في تسجيل أبنائها في قسم الطبّ في الجامعة الأميركيّة زرع الهلع في الأوساط المارونيّة والكاثوليكيّة وعجّل في تأسيس الكليّة؛ ثانيًا تطوّر التعليم الثانوي الكاثوليكي بحيث كان يتخرّج منه الشباب في صفّ البكالوريا من دون إيجاد فرص للالتحاق بالجامعة؛ ثالثًا تطوّر مدينة بيروت السريع على الصعيد البنوي والاقتصادي ممّا استوجب التفكير بإنشاء لا كليّة الطبّ فقط بل كليّتَي الحقوق والهندسة لاحقًا في السنة 1913 للاستجابة إلى المتطلّبات الإجتماعيّة والسياسيّة والتنمويّة؛ رابعًا تخريج كوادر متمكّنة من اللّغة الفرنسيّة وآدابها بهدف تعزيز الوجود الفرنسي التربوي والإقتصادي والسياسي في الربوع اللبنانيّة والسوريّة

6. بغية التحايل على السؤال الدقيق حول من ستكون له الأولويّة، هل يكون الأستاذ الفرنسيّ أو العثمانيّ، كانت رئاسة هيئة المحلّفين المختلطة تتّوجه إلى يسوعيّ، الأمر الذي جعل جامعة القدّيس يوسف تستحقّ كلمة مشهورة قالها جورج كليمنصو حول "العلمانيّة مع العدّ التنازلي" . إلى البرلمانيين الفرنسيين الذين غالبًا ما يطرحون أسئلة حول "القيم" المعلنة في المؤسّسة، يتمّ إعطاء ضمانات : "حريّة الضمير تُحترم إحترامًا كاملا في كليّة الطبّ في بيروت من قِبَل كلّ من الأساتذة والطلاب !"

وتقوية هذا الوجود بثقافة فرنسيّة تواجه المدّ الأنكلوفوني في المنطقة. وكما يقول دوكرييه أيضًا: "إنّ نشر العلمانيّة كانت هدفًا فرنسيًّا هامًّا وإنّ التربية الدينيّة الكاثوليكيّة كانت هدفًا أساسيًّا هامًّا لليسوعيّين إلاّ أنّ هذين الهدفين تحوّلا مع مرور الأيّام إلى هدف مشترك هو التربية على الثقافة الفرنسيّة والعربيّة وعلى حريّة الضمير والتعبير بما يضمن التعدّديّة بمختلف أنواعها (دوكرييه، مقال عن الجامعة اليسوعيّة 2001).

القسم الثاني: شخصيّتان نموذجيّتان من الجامعتَين

أ– الدكتور كورنيليوس فان دايك

وإنّي أختار نموذجين من العلماء الذين تركوا في حياة الجامعتين الأثر الكبير الذي لا يُمحى، إذ ساهم كلّ واحد منهما على طريقته في إحياء النهضة العربيّة وكانا من الآباء المؤسّسين للجامعة الأميركيّة والجامعة اليسوعيّة. أمّا الأوّل فهو كورنيليوس فان دايك (1818-1895) من الجامعة الأميركيّة والذي ارتبط اسمه بالترجمة العربيّة للكتاب المقدّس سميث/ فان دايك. كان عالمًا في الرياضيّات واللّغات منها العربيّة ومؤلّفًا ومترجمًا وناشرًا غزيرًا. وهو كما يُعرف كان أستاذًا في الطبّ العامّ والفلك في الكليّة. من أنشطته الإرساليّة أنّه حرّر الأسبوعيّة العربيّة التي كانت تصدرها الإرساليّة تحت عنوان "النشرة". ألّف ثلاثة عشر كتابًا في الجغرافيا وكذلك في الرياضيّات والطبّ وخصوصًا في علم التشخيص. وفي الأزمة التي أثارها الأستاذ إدوين لويس في السنة 1883، وهو لم يكن يمتلك اللّغة العربيّة، وإثر تأييده نظرة داروين في النشوء والارتقاء، وقف كورنيليوس إلى

جانب الطلبة وجلّهم من اللبنانيين الذين كانوا أعلنوا الإضراب لأنّ رئيس الكليّة آنذاك دانيال بلس ومجلس الأمناء فصلوا ذلك الأستاذ من هيئة التعليم. الواقع أنّ الموضوع كما نعرفه اليوم لم يكن يتعلّق فقط بنظريّة داروين بل ما قاله ذلك الأستاذ في الاختلاف بين العلم القائم على المعرفة والدين القائم على الحكمة وبأنّ أيّ تطوُّر يقوم على العلوم وأنّ الحكمة ليست سوى نهج حياة للفرد والجماعة. إستقال فان دايك من التعليم مع ابنه الأستاذ ونظّم دروسًا خاصّة للطلاب المضربين مما سمح لهم بتقديم امتحاناتهم بنجاح تامّ في اسطنبول. كان فان دايك يعتبر نفسه مواطنًا من المواطنين العرب، يلبس العباءة ويدخّن النارجيلة، على ما يقول فيليب حتّي في تاريخه، وخلّف اسمًا تحيط به هالة من الإحترام والوقار. ولم تتردّد بلديّة بيروت بإقامة نصب له بمناسبة الخمسين سنة لدخوله لبنان.

ب– لويس شيخو، "سلطان اللّغة العربيّة"

أمّا الشخصيّة المقابلة التي أودّ التحدّث عنها فهي الأب لويس شيخو (1859–1928)، كلداني كاثوليكي، من ماردين في تركيا، درس في لبنان وأوروبا بعد أن دخل الرهبنة اليسوعيّة ثمّ أصبح أستاذ اللّغة العربيّة في الجامعة ومديرًا للمكتبة الشرقيّة لفترة طويلة إلى جانب تأسيسه مجلّة "المشرق" في السنة 1898 وكان رئيسًا لتحريرها حتى وفاته، حيث ساهم بكتابة المئات من المقالات إلى جانب الثلاثين مؤلّفًا التي أصدرها حيث تناول التاريخ وتاريخ الآداب والجاهليّة والشعر والحياة الدينيّة والروحيّة والفلسفة. من إنجازاته الفذّة أنّه جال في بلاد المشرق وأوروبا فجمع المخطوطات الثمينة لمكتبة الجامعة فَوَصل عدد ما اقتناه أكثر من أربعة الآف مخطوط محفوظة اليوم في المكتبة

الشرقيّة. يكفي القول إنّه من الكتب المعروفة في العالم العربي من المحيط إلى الخليج حتى اليوم، مؤلّفه "مجّاني الأدب في حدائق العرب" وهو من النصوص الشهيرة عند كلّ الأجيال العربيّة.

يقول فيليب حتّي عن إسهام الأستاذين في حركة الفكر العربيّة معلّقًا : "إنّ كتب هذين الأستاذين وغيرهما من كتب الطليعة كانت حجر الزاوية في الحركة الفكريّة واليقظة القوميّة ليس في لبنان وحسب بل في سائر أنحاء العالم العربي. فقد كانت كتبًا مدرسيّة (...) ومراجع يرجع إليها المعلّمون ونماذج يقتدى بهما في البحث العلمي والأدبي. بكلام آخر كان هذا النتاج العلمي والأدبي أداة اليقظة العربيّة الفعّالة في القرن التاسع عشر".

ج– تعزيز دور اللّغة العربيّة

والحديث عن هذين الأستاذين، يقود إلى الدور الصائب الذي لعبته الجامعتان في مجال تعزيز اللّغة العربيّة. فإلى جانب القرار بنقل الكتاب المقدّس بكامله إلى اللّغة العربيّة، والاهتمام بعلوم الطبّ واعتماد الجامعة الأميركيّة بداية اللّغة العربيّة كلغة تدريس، أخذ الاهتمام باللّغة والآداب العربيّة وكذلك العلوم الشرقيّة عامّة وخصوصًا الباثولوجيا وعلم الآثار والتاريخ مكانة هامّة في سياق برنامج كلتَي الجامعَتين. ففي الجامعة اليسوعيّة نشأت كليّة الآداب الشرقيّة وقد تحوّلت إلى معهد الآداب الشرقيّة لاحقًا وحتّى اليوم، وقد تخرّج منه حاملون لشهادات الآداب في مختلف الاختصاصات والمراحل، والآلاف من اللبنانيّين ومن مواطني الدول العربيّة والأوروبيّة، نذكر منهم الشاعر أدونيس والأساتذة حمد الكواري وعقل العويط وهيفاء أبو غزاله وسعاد الحكيم وليلى الصلح حماده ووليد عبّود وغيرهم كثيرون من أهل الأدب والسياسة والصحافة.

ومن آثار هذا المعهد، سلسلة أبحاث ودراسات في الفكر الإسلامي "وقد صدر منها أكثر من مئة مجلّد في التاريخ والتصوّف وعلم الكلام وعلوم القرآن والحديث والدراسات اللّغويّة العربيّة نذكر منها "المختصر في علم القواعد العربيّة" وقد وضعه الأب فليش اليسوعيّ. ويمكن القول إنّ وجود الكثير من الآباء اليسوعيّين الذين تضلّعوا باللّغة العربيّة وآدابها كان الضامن لنجاح هذا المعهد الذي فقد اليوم من بريقه لأكثر من سبب. وفي المقابل، وإن انتقل التعليم سريعًا من العربيّة إلى الإنكليزيّة، فإنّ الجامعة الأميركيّة واظبت، منذ نشأتها حتى اليوم، على المحافظة بشكلٍ متواصل على قسم اللّغة العربيّة وآدابها والعلوم الإسلاميّة ودراسات الشرق الأوسط بشكلٍ عامّ، حيث يتوجّه العديد من طلاّبها للإستزادة من معارفهم في هذه العلوم. ومن المتخرّجين منها أو من طلاّبها الأوائل، يُذكر اسم جرجي زيدان مؤسّس الهلال ويعقوب صرّوف وفارس نمر مؤسّسي مجلّة "المقتطف" التي ناصرت في الثمانينات من القرن التاسع عشر الأستاذ إدوين لويس والنظريّة الداروينيّة.

القسم الثالث:

أ– إحترام وتضامن من حيث المبدأ في المحنة

الكليّة السوريّة البروتستانتيّة وجامعة القدّيس يوسف اللتان تمّ إنشاؤهما معًا من مرسلين مسيحيين في أرض العرب والإسلام، واجهتا المسائل نفسها، بدءًا بمسألة الحريّة الدينيّة، وحريّتهما الدينيّة الخاصّة وحريّة طلابهما. كلتاهما استقبلت بشكلٍ سريع مسيحيين شبّان

من مختلف الطقوس وكذلك المسلمين. فلنذكّر أنّ هدف المرسلين الأوّل كان التبشير بالإنجيل والوعظ الدينيّ. فالنظم الأساسيّة في ذلك الوقت كانت تجعل الخدمات الدينيّة إلزامية لجميع المسجّلين.

تحوّلت قضيّة الطلاّب المسلمين واليهود والمطالبين بممارسة الشعائر الدينيّة المسيحيّة من قبل الإدارة إلى أزمة مفتوحة في الكليّة البروتستانتيّة السوريّة في العام 1908 وخاصّةً في العام 1909[7]. واعتمادًا على حريّة الضمير المندرجة في الدستور العثمانيّ الذي كان أعيد إصلاحه قبل عام، رفض 220 طالب مسلم ويهوديّ، أي مجموع الطلاب غير المسيحيين وهم 25٪ من مجموع الطلاب المسجّلين في الجامعة، رفضوا متابعة مقرّرات التعليم الدينيّ الدراسيّة وقداديس الأحد. واتّخذت القضيّة نطاقًا واسعًا وتمّت مناقشتها في الصحافة المصريّة ودوائر السلطة، وفي اسطنبول وواشنطن. ورفض المسؤولون في المؤسّسة تقديم التنازلات، معتبرين أنّ المعنيين تسجّلوا عن سابق علم، عندما أظهر هؤلاء، وخاصّةً المسلمين منهم، تصميمًا قويًّا، وأقسموا على القرآن الكريم، متوجّهين إلى الصحافة والحكومة وطلبوا انخراطهم إلى جامعة القدّيس يوسف (وهو واقع ليس معروفًا جدًّا في الجامعة الأميركيّة في بيروت...).

المسألة نفسها طُرِحَت في جامعة القدّيس يوسف وعولجت بشكلٍ مختلف. فرض النظام بالطبع الوجود الإجباري لجميع المسجّلين في الممارسات الدينيّة. ولكن منذ العام

7. Anne-Laure Dupont, « Une école missionnaire et étrangère dans la tourmente de la révolution constitutionnelle ottomane », *Cahiers de la Méditerranée* [En ligne], 75 | 2007, mis en ligne le 21 juillet 2008, consulté le 22 octobre 2017. URL : http://cdlm.revues.org/3483 et Chantal Verdeil, « Un établissement catholique dans la société pluriconfessionnelle de la fin de l'Empire ottoman », *Cahiers de la Méditerranée* [En ligne], 75 | 2007, mis en ligne le 21 juillet 2008, consulté le 22 octobre 2017. URL : http://cdlm.revues.org/3373 ALSI, faculté de médecine, histoire et documents divers, vol. 3, p. 107-108. Faculté de médecine, histoire et documents divers, vol. 2, p. 372.

1875 تمّ التسامح تجاه الخروقات التي حصلت من قِبَل الطلاب غير الكاثوليك. وأصبح هذا الموقف هو القاعدة في بداية القرن العشرين، ولا سيّما استجابةً لطلب الطلاب الفارسيين إعفاءهم من الممارسة الدينيّة. ومنذ ذلك الحين، لا يُطلَب من الطلاب غير المسيحيين في كليّة الطبّ وفي الجامعة اليسوعيّة في بيروت ممارسة الشعائر الدينيّة، إلا يوم الإحتفال بالقدّاس السنويّ الذي يحضره قنصل فرنسا ؛ بالتالي تمّ نقل من يرغب بالصلاة من الطلاب المسلمين إلى المسجد لإقامة شعائرهم الدينيّة، كما وصفت الأمر المؤرّخة شانتال فرداي.

اليسوعيون كانوا فخورين بطبيعة الحال بالحريّة التي تسود في الجامعة : في الجامعة الأمريكيّة، "يُمارَس التبشير الدينيّ، وفي الكليّة الفرنسيّة يقتصر الأمر على القيام بدراسة الطبّ"، كما كتب الأب كاتين Cattin بشيءٍ من الارتياح. بطبيعة الحال، كان من الصعب تفويت مثل هذه الفرصة ... ولكنّ الحقيقة الأهمّ هي أنّ سلطات جامعة القدّيس يوسف رفضت قبول طلاب مهدّدين بالإقصاء من الكليّة البروتستانتيّة السوريّة ؛ الأب كاتين نفسه، الذي استقبل البعض منهم، أعادهم قائلاً لهم أن يعودوا عندما تنتهي القضيّة.

كانت الأزمة مؤقتة، فلم يتمّ استبعاد الطلاّب المضربين من الجامعة. وسوف يتمّ تسويتها حقًّا في العام 1920، عندما أصبحت الكليّة السوريّة البروتستانتيّة الجامعة الأميركيّة في بيروت، مزيلةً بالتالي ذكر الدين من اسمها للتأكيد على الحريّة الدينيّة التي بوشر بتعزيزها رسميًّا منذ تلك الفترة[8].

8. The American University of Beirut, *A visual History of the American University of Beirut's First One Hundred and Fifty Years*, Beirut, AUB, 2016, p. 69.

ومن الأعمال المشتركة التي قام بها علماء من الجامعتين الموسوعة اللبنانيّة التي صدرت إبّان الحرب العالميّة الأولى. فالوالي عزمي بك الذي أطلق في العام 1915 ورشة واسعة لإعادة هيكلة مدينة بيروت، أمر في العام 1916 بإجراء دراسة حول "تاريخ بيروت وآثارها" من قِبَل الأب شيخو. وتمَّ نشر هذه الدراسة بعد الحرب، وسوف تصبح مرجعًا في هذه المسألة. وأوكل متصرّف جبل لبنان إسماعيل حقي بك من ناحيته إلى الأب شيخو والأب صالحاني الإشراف على صياغة موسوعة ساهم فيها أيضًا أربعة أساتذة من الكليّة البروتستانتيّة السوريّة[9]: "لبنان، دراسات علميّة وأدبيّة". وحدهما كتبا أكثر من الثلث، ووضعا قائمة المصادر والمراجع والفهارس، رافضين مقالاً كتبه المدير التركي للتعليم في لبنان، والذي اعتُبر مسيئًا للمدارس الأجنبيّة.

– متّحدون في حرب لبنان والمحنة (في مواجهة اغتيال مالكولم كير Malkolm Kerr)

يظهر التضامن في مواجهة المِحَن وفي خدمة المجتمع عندما يتعرّض لبنان لأزمة كبرى تمزّقه حرب لا نهاية لها بين الأشقّاء. جامعيّون مؤمنون، مسيحيّون ومسلمون، حين وعوا أصالة دياناتهم ومساهمة الحوار من أجل التفاهم والمصالحة، قرّروا إنشاء مساحة أكاديميّة للإصغاء وتبادل الآراء والدراسة. وهكذا نشأ في العام 1977، قسم الدراسات الإسلاميّة المسيحيّة في الجامعة اليسوعيّة الذي سيحتفل يوم الجمعة المقبل بذكرى مرور 40 سنة على تأسيسه بندوة أنتم جميعًا مدعوّون إليها.

9. EDDE, « Le savoir encyclopédique ou la continuation de la guerre par d'autres moyens », *La Première Guerre Mondiale au Proche-Orient : expériences, savoirs, mémoires*, colloque organisé par l'Institut français du Proche-Orient, l'Orient-Institut Beirut, le Département d'Histoire de l'Université Saint-Joseph et l'Institut des études palestiniennes, Beyrouth, 3 et 4 novembre 2014.

"المعرفة الموسوعيّة أو استمرار الحرب بوسائل أخرى"، الحرب العالميّة الأولى في الشرق الأوسط : خبرات ومعرفة وذكريات.

الغرض من هذه الأكاديميّة كان يقضي وما يزال بتعزيز معرفة الإسلام والمسيحيّة من قِبَل المسيحيين والمسلمين، بروحٍ من الاحترام المتبادل ووفقًا للمناهج الأكاديميّة. في العام 1980، أصبحت الأكاديميّة معهد الدراسات الإسلاميّة المسيحيّة وواصل أنشطته خلال الحرب[10]. حول الأب أوغسطين دوبري-لاتور تواجد أيضًا يوسف إبيش Yusuf Ibich من الجامعة الأميركيّة في بيروت والعديد من الشخصيّات الأخرى (مثل هشام نشّابه وأندريه سكريما...)[11].

وقد دفعت كلّ من جامعة القدّيس يوسف والجامعة الأميركيّة في بيروت ثمنًا باهظًا للحرب. توفّي فيها سبعة آباء يسوعيين غير لبنانيين، خمسة فرنسيين، وهولنديّ وأمريكيّ[12]، وكلّهم كانوا مكرّسين لخدمة لبنان لسنوات عديدة.

أنا لا أنسى أيضًا الأعضاء الآخرين في أسرة جامعة القدّيس يوسف الذين توفّوا أثناء الحرب، ولا اؤلئك الذين كانوا في الجامعة الأميركيّة في بيروت. أنا أفكّر بشكلٍ خاصّ في اختطاف ديفيد دودج David Dodge، رئيس الجامعة الأميركيّة في بيروت في العام 1982، وخاصّة إغتيال مالكولم كير في 18 كانون الثاني (يناير) 1984. جميع رؤساء الجامعات في لبنان بدءًا من رئيس الجامعة الراحل الأب جان دوكروييه Jean Ducruet حضروا مراسم الدفن ونشروا بيانًا مشتركًا يدين هذا العمل[13].

---

10. http://www.ieic.usj.edu.lb/files/pres.htm

11. Sur Yusuf Ibich : The American University of Beirut, *A visual History of the American University of Beirut's First One Hundred and Fifty Years*, Beirut, AUB, 2016, p. 168.

12. أصيب الأب جيمس فينغان (1912-1984) بقذيفة حين كان يمشي من مقرّ دير اليسوعيين نحو مستشفى أوتيل ديو للإحتفال فيها بالقدّاس كامعتاد). **صورة جامعة القدّيس يوسف**. Portrait de l'USJ

13. Carla Eddé, Les dialogues dans la société civile pendant la guerre du Liban (1975-1990), Research working paper, UNDP, 2012. Et http://www.memoryatwork.org/public/uploads/files/malcolmkerrpa-facts-assafir-19840119-1,9.pdf.

لن أتطرّق إلى الخسائر الماديّة الهائلة التي سبّبتها الحرب – حتّى اضطرت جامعة القدّيس يوسف إخلاء بعض أحرامها المدمّرة والمحتلّة في التسعينات. وقد تمكّنت الجامعة الأميركيّة في بيروت وجامعة القدّيس يوسف من الاستمرار وحتّى التوسّع. وقد أنشأت الجامعة الأميركيّة في بيروت حَرَمين في الأشرفيّة وجونيه خارج المقرّ الرئيسيّ الجامعة، وجامعة القدّيس يوسف مراكزها الإقليميّة الثلاثة في الشمال والجنوب والبقاع والمراكز الجامعيّة الإقليميّة التي لا تزال قائمة وفي تطوّر دائم.

القسم الرابع: بين التقليد والحداثة

ويمكن القول إنّ الجامعتين ساهمتا إلى حدٍّ كبير، إلى جانب مؤسّسات تربويّة أخرى، في إرساء قواعد النهضة العربيّة واليقظة الثقافيّة في العالم العربي وأطلق عليها اسم النهضة الأولى عبر التغييرات التي طرأت على اللّغة العربيّة التي ظلّت حتّى مستهل الحركة الفكريّة لغة جامدة يصعب التعبير بها عن الفكر والحضارة. فعلى أقلام الكتّاب اللبنانيّين (وغيرهم من البلاد العربيّة) وجلّهم من متخرّجي الجامعتَين، تطوّرت اللّغة وتكيّفت لتلائم متطلّبات الثقافة الحديثة، ومردّ هذا التبدّل الذي حصل على اللّغة العربيّة يعود إلى التلاقح الذي حصل بين الثقافة الغربيّة الحديثة التي تنظر إلى اللّغة وإلى الآداب وإلى النصّ المكتوب بشكلٍ عامّ كمعطى تاريخي يُمكن تفكيكه وإعادة تركيبه وإدخال الجديد المبدَع عليه في حين أنّه كان يُنظر إلى اللّغة العربيّة كمعطى قدسي ثابت لا يجوز مسّه. إلاّ انّه ينبغي لنا القول في الوقت عينه إنّ هذا التلاقح لم يولّد دومًا التناغم المرجو والحالة الثقافيّة الجديدة المقبولة، بل إنّه خلق أيضًا حالة تشنّج ونزاع كبيرين بين التقليد والحديث

وبين القديم والدخيل، ما زلنا حتّى اليوم نعاني منه على مختلف المستويات لا فقط الأدبيّة والعلميّة بل إنّه ترك آثاره على العلاقات بين الناس ضمن المجتمع الواحد. إنّ هذا التلاقح لم يرقَ إلى مستوى صياغة مع ما هو أصيل، أي ما هو نتيجة تلاقح بين الشرق والغرب وبين القديم والحديث. وإنّه لمن الموضوعي القول إنّ هذا النزاع ظهر أيضًا على صفحات منشورات قريبة من الجامعة اليسوعيّة مثل جريدة "البشير" وعلى صفحات مجلّة "المشرق" التي أدانت الأفكار الماديّة التي روّج لها أحد متخرّجي الجامعة الأميركيّة شبلي الشميل وكذلك الطروحات التي اعتبرها البعض معادية للدين وقد عمدت إلى نشرها مجلّة "المقتطف".

بين القوميّة الخاصّة والقوميّة العربيّة

وأستشهد في هذا السياق بما قاله دايفيد دودج، وهو من أحفاد دانيال بلس المؤسّس: "إنّ الكليّة وفّرت جوًّا من التفكير الحرّ والنقاش الحرّ. إلتقت من خلاله الثقافة العربيّة والطلاّب العرب بالمفاهيم الغربيّة، ممّا ولّد الكثير من الأفكار ومنها فكرة الإنتماء القومي، ممّا أسّس لفكرة القوميّة العربيّة". (Quoted by Kaplan, VanderMark p. 53).

فالجامعة الأميركيّة كانت عزّزت نشأة القوميّة بشقّيها العربي والإقليمي، ممّا خلق جوًّا من معاداة الوجود الفرنسي والبريطاني عند الطلاّب واصفين ذلك الوجود بالإمبرياليّة الأوروبيّة كما كان يقول الرئيس بايارد دودج في الحلقات المغلقة (VandermMark, 114)، وذلك ما يناقض المساواتية (egalitarianism) والديموقراطيّة الأميركيّة، وهما شرطان لتحقّق حريّة الشعوب.

وواقع الحال أنّ الجامعة الأميركيّة إبّان الانتداب وبعده ولفترة غير وجيزة مثّلت قطبًا أكاديميًّا ثقافيًّا أيديولوجيًّا محصّنًا، حيث إنّ الطلاّب كانوا يتوافدون إليها من مختلف المناطق العربيّة، في حين أنّ الجامعة اليسوعيّة تخصّصت في تكوين كوادر الدولة اللبنانيّة الناشئة ولمدّة طويلة وما زالت حتّى اليوم، وصارت مع الأيّام وحتّى نهاية الحرب اللبنانيّة بين 1975 و1990 مساحة ترعرعت فيها كوادر الأحزاب المسيحيّة ضمن صراع بينها. أمّا في الجامعة الأميركيّة فنجد الأستاذ أنطوان سعاده معلّمًا اللّغة الألمانيّة ومؤسّسًا حزب سورية الكبرى، في حين كانت تنمو يومًا بعد يوم مجموعة العروة الوثقى التي تنهج منهج القوميّة العربيّة. ثمّ نجد الدمشقي قسطنطين زريق موقّعًا كتابه "معنى النكبة" الذي يتّهم فيه عقليّة عربيّة إنهزاميّة حيال فلسطين ويتساءل عن إزدواجيّة الموقف الأميركي الذي ينادي بالعدالة والديموقراطيّة في الجامعة ولا يفعل شيئًا حيال شعب يجرّد من أرضه وهويّته. نكبة 1948 دفعت بالعديدين من الأساتذة الفلسطينيّين نحو الجامعة وبالكثير من الطلاّب الذين عملوا على أن تبقى قضيّة فلسطين قضيّة حيّة. ومن بين هؤلاء جورج حبش أحد مؤسّسي حركة القوميّين العرب. تلك الحركة غزت التيّار الناصري بأفكارها قبل أن تتحوّل حركات جهاديّة متنوّعة. ونتذكّر من خلال قراءة التاريخ كيف أنّ الجامعة استمرّت ثورة تحرّك ضدّ العدوان الثلاثي على السويس، ثمّ ضدّ حرب الجزائر وضدّ السياسة الأميركيّة إبّان الحرب الباردة. وطلاّب الجامعة الأميركيّة هم الذين أسّسوا النادي الثقافي العربي في مواجهة الندوة اللبنانيّة التي أطلقها ميشال أسمر والمحسوبة على متخرّجي الجامعة اليسوعيّة وعلى الأوساط الفرنكوفونيّة. فقد استمرّت الجامعة مساحة كوزموبوليتيّة، أكثر من الجامعة اليسوعيّة التي انحسر دورها الإقليمي بفعل انحسار اللّغة

والثقافة الفرنسيّة والتي تحوّلت أكثر فأكثر إلى جامعة لبنانيّة للبنانيّين، وقد أفضى ذلك إلى إعلان شرعتها الحديثة في السنة 1975 حيث أعلنت فيها عن مركزيّتها وإنشاء رئاسة فاعلة لها، وكذلك عن نظرتها إلى الواقع اللبناني كمساحة للعيش المشترك بين مجموعاتها الدينيّة، تعمل على إعلاء الشعور بالمواطنيّة الواحدة بين الجميع.

ويُمكن القول إنّه من ناحية الجامعة اليسوعيّة، مع تأسيس كليّة اللاهوت في السنة 1875، نمت شيئًا فشيئًا فكرة الانتماء القومي للبنان الكبير بين الطلاّب الإكليريكيّين وازدهرت بشكلٍ ملحوظ مع نهاية الحرب العالميّة الأولى ولا عجب أن يكون البطريرك الياس الحويّك أحد متخرّجي كليّة اللاهوت في اليسوعيّة على رأس المطالبين بدولة لبنان الكبير ومن المفاوضين الأساسيّين الموقّعين على معاهدة فرساي الشهيرة.

نعرف أنّ متخرّجي كليّة الحقوق لعبوا الدور البارز في التأسيس القانوني والإداري للبنان الكبير كما أراده عديدون من اللبنانيّين، إلاّ أنّ فكرة تأسيس الكليّة في السنة 1913 لم تكن مرتبطة بالإعداد لإنشاء دولة لبنان. الدافع الأساسي لليسوعيّين والفرنسيّين، عبر بول هوفلان، جاء من ازدياد العلاقات التجاريّة والإقتصاديّة والقضائيّة والتربويّة بين فرنسا وأوروبا والشرق الأدني ممّا عزّز فكرة إنشاء مدرسة للحقوق تضاهي المدرسة الرومانيّة في بيروت، تعدُّ الكوادر الحقوقيّة والموارد البشريّة القادرة على حمل عبء المحاماة والمرافعة أمام المحاكم. زد على ذلك أنّ الأوروبيّين كانوا يريدون إدخال الشرع المدني الفرنسي على الشرق كمرجع يحفظ حقوقهم ويحدّد واجباتهم، وبالتالي الابتعاد عن الشرع الإسلامي الذي لم يكن يتوافق مع مصالحهم.

ونظرة سريعة إلى ما حقّقته كليّة الحقوق من مآثر إعداد العشرات من رؤساء الجمهوريّة اللبنانيّة والوزراء من متخرّجيها ومئات النوّاب وكبار موظّفي الدولة من مدراء وسفراء وقناصل، فإنّ الكليّة حقّقت إنجازات ذات طابع نوعي في مجال البحث العلمي الحقوقي بمختلف جوانبه. ومن الجيّد أن نستذكر بعض الأسماء مثل شكري قرداحي في مجال الشرع الإسلامي المقارن والقانون والأخلاق وبشاره طبّاع في التوافق بين الأنظمة الحقوقيّة والملكيّة الخاصّة والسجلّ العقاري والحقّ السياسي والأنسنة (humanisme) وإميل تيّان من تاريخ النظام القانوني في البلاد الإسلاميّة والقانون اللبناني، إلى جان باز وبيار غنّاجه وأنطوان فتّال المعروف بكتابه حول الشرع الإسلامي وأهل الذمّة.

القسم الخامس:

التحدّيات

1) إنّ الأولويّة في تأسيس النظام الجامعي اللبناني وإن كان مشرقيًّا، فهو يدعونا إلى المزيد من الالتزام في رسالة التربية وفي إعداد كوادر الرأسمال البشري اللبناني والعربي، خصوصًا وإنّ هذا النظام الجامعي لا يعيش اليوم أفضل أيّامه، بشهادة المراقبين والاختصاصيين من أهل علوم التربية. فعندما يقع بين أيدينا أحد التقارير الموضوعيّة لأحوال هذا التعليم (عدنان الأمين) أو عندما تسمع أحد العارفين يحاضر في التعليم العالي العربي تحت عنوان : "كيف يصبح التعليم العالي العربي أعلى"، فإنّنا نجد بعض العبارات الشديدة الوقع والقاسية في حقّ التعليم العالي العربي، مثل : "الجامعة وضرورة إصلاحها، الجامعة مركز تفريخ العاطلين عن العمل، العنف الديني والقبلي الذي يضرب جامعاتنا، إنتاج التبعيّة بدل المعرفة والحريّة، الجامعة والشهادات الفارغة" كلّ ذلك يُعطي

صورة سوداء لحالة التعليم الجامعي – التقرير نفسه يعترف أنّ في هذا المشهد هناك بعض جزر التميُّز والجودة، إلاّ أنّ هذه الجزر ونحن منها على الأرجح، إنّما تولّد الكثير من الحسد وتصوّر الجامعات الجزر الجديدة كأنّها قلاع في خدمة أهل المال والسلطان. لا شكّ أنّ التصنيف الذي يطال جامعات المنطقة العربيّة التي تقوم به بعض وكالات التصنيف العالميّة إنّما يبدو وكأنّه واقعة نحو الأفضل إنّما يطال على الأكثر المئة جامعة على الألف جامعة التي تعمل ضمن العالم العربي. ليس عندي الكثير من الحلول لهذا المشكل إلاّ أنّه موضوع ينبغي دراسته معًا إن اعتبرنا رسالتنا متوجّهة إلى مختلف العالم العربي، فنكون أدوات إعلاء للتعليم الأعلى لأنّنا في خدمة الشبيبة كلّها لا بعضها.

2) التحدّي الثاني يتناول موضوع التربية على المواطنة ودَور الجامعة في ذلك، والجامعة الأميركيّة كما رأينا لها دَورًا بارزًا في ذلك والجامعة اليسوعيّة كذلك. نعرف أنّ هناك نزعةً تقول "إنّ دور الجامعة لا يتعدّى إعداد الكوادر الماهرة وإعطاءها الجواز بالشهادة التي تسمح لها بالدخول السهل في سوق العمل. إلاّ أن جامعتينا إختارتا أن تكونا مساحة حوار ونقاش وبناء شخصيّة المواطن القادر على العيش معًا مع الآخر بالسلام والأمان مع احترام الاختلاف الديني والعرقي والسياسي لكل أحد وذلك يُحدّد الأطر الصحيحة لممارسة المواطنيّة الصالحة. حتّى أنّ منهجية التعليم تُشدّد على الفكر النقدي والشكّ المنهجي وعلى استنباط الجديد وتجاوز المألوف إلى جانب استظهار المعطيات الثابتة التي على العقل أن يتكيّف في استخدامها بحسب الظروف. وكما أنّ الجامعة، بما أنّها تؤمن بالتداول الديموقراطي على السلطة وبالتربية على ذلك وباختيار للفرد الطالب الشخص المناسب في المكان المناسب، إنّما عمدت وتعمد إلى تنظيم الانتخابات كل

سنة لتشكيل الهيئات والحكومات الطالبيّة. إلاّ أنّ السؤال يطرح موضوعيًّا، إلى أيّ حدّ استطعنا أن ننجح في التغيير الإجتماعي والثقافي على مستوى المجتمعات والأوطان للوصول إلى حياة ديموقراطيّة حقّ وإلى الحدّ الأدني من العيش المشترك بين المجموعات والناس ؟ وبما أنّ الأوضاع السياسيّة واليقظات الدينيّة المتطرّفة وصعود القوميّات الأحادية إلى جانب استمراريّة المشكلة الفلسطنيّة والصراع العربي الإسرائيلي وازدياد الاصطفافات المذهبيّة والطائفيّة وعدم تجدّد النظام السياسي العربي، ذلك كلّه لم يساعد للتفكير الخلاّق في الأدوات الناجعة على مستوى جامعاتنا وعلى صعيد أكاديمي، والتي من شأنها تحويل مساحة الحريّة والحوار والنقاش على مساحة بناء الشخصيّة المتوازنة القادرة على التغيير. ويبقى أنّ الجامعة الأميركيّة والجامعة اليسوعيّة متّفقتان على الشعار التالي: "إنّ مساحة الجامعة فيها ما يجعلنا نتّفق على الكثير من القِيَم والمبادئ المشتركة" وهو أكثر ممّا فيها ما هو مثار الاختلاف، كما كان يقول الرئيس الأسبق بايارد جورج وهو القول نفسه الذي تقوله الشرعة الأساسيّة لجامعة القدّيس يوسف وما كان يردّده الأب دوكرييه في خطبه المتعدّدة. فذلك الشعار يعني أنّ على أيّ طالب يقبل بمبدأ الاختلاف" أن يحترم هويّة الآخرين وديانتهم وخطهم السياسي وأن يكون الحوار والمناقشة الطريق الوحيد للتخاطب وللتعبير عن الرأي.

3) أمّا التحدّي الثالث فيتعلّق بمستقبل دراسات اللّغة العربيّة وآدابها والعلوم الإسلاميّة والعلوم الشرق أوسطيّة في جامعاتنا. والسؤال يكمن في التالي : كيف نبقي على الجانب النقدي التاريخي والمعرفي في دراساتنا وأبحاثنا في وقت يعمد فيه التعليم في الكليّات التقليديّة، حتى تلك التي تحسب في خانة الانفتاح على التقليد ليس إلاّ ومن دون أي

نقاش موضوعي حول صحّة المعلومات المقدّمة ؟ كيف نبقي هذا الجانب النقدي في وقت أنهى فيه الاستشراق الذي يدرّس تلك المعلومات كدلالة على ظاهرة معيّنة يجب تفسيرها و تأويلها وفي وقت يتضاءل عدد الطلاّب اللنانيّين والعرب الذين يؤمّون معاهدنا وأقسامنا وكلّيّاتنا العاملة في هذا المجال ؟ فإذا عدنا سنوات إلى الوراء لوجدنا العشرات لا بل المئات منهم على مقاعد الدراسة في حين أنّ عددهم تقلّص إلى القليل اليوم.

4) ربّما من التحدّيات الأخرى الأساسيّة اليوم أمام جامعاتنا، موضوع البحث العلمي بمختلف وجوهه وهو يتطلّب المزيد والمزيد من التوظيفات في الموارد الماديّة والبشريّة. فالتحدّي لا أن ننشر وننشر الأبحاث فقط وهذا ضروري، بل الهام هو أن نترك عبر أعمالنا البحثيّة الأساسيّة والتطبيقيّة أثرًا إيجابيًّا في مختلف أحوالنا في لبنان والعالم العربي ولِمَ لا على المستوى العالمي. ومن التحدّيات أن نُبقي خيرة البحّاثة معنا وبيننا. فالبحث العلمي ليس موضة من المُوَض أو ترفًا أكاديميًّا بل إنّه يُعدّ طالبًا متخرّجًا لديه المنهجيّة في معالجة الأمور تختلف عن المنهجيّة التقليديّة العمياء. لقد اشتهرت الجامعة الأميركيّة والجامعة اليسوعيّة في بيروت لمدّة طويلة بالأبحاث في ميدان العلوم الأدبيّة والإنسانيّة والإجتماعيّة إلاّ أنّ هذا الاهتمام خفت بشكل شديد في سالف السنوات الماضية ليترك المكان أمام العلوم الصحيحة. ربّما حان الوقت مع هذه المئة والخمسين والمئة والثلاثة والأربعين لاستدراك ذلك المعطى الأساسي الذي يحتاج إليه العالم اللبناني والعربي ليرى ذاته بوجه أفضل ويشدّ رحيله نحو بناء المستقبل.

5) هناك عملٌ آخر لا بدّ أن ننظر إليه كوعد للمستقبل في مجال الدراسات القانونيّة والشرعيّة خصوصًا في مجال حقوق الفرد وعلاقتها بحقوق الجماعة أكانت سياسيّة أو

دينيّة. ويمكن القول أيضًا إنّ من شأن الجامعتين الاهتمام مجدّدًا ودومًا بالتراث المادي والمعنوي، وهو دَومًا من اهتمام الجامعتين. فالتراث هو مخزون الماضي ومرجع أساسي من مراجع الهويّة. وبالنسبة إلى التراث القديم، يجدر الاهتمام بالانتاج التشكيلي الحديث بمختلف أنواعه.

6) تحدّي الإكتساب اللغوي، وأنهي بهذا الأمر. أعلم إنّي تحدّثت عن ضرورة تواصل الإهتمام باللّغة العربيّة وآدابها، إلاّ أنّ ما يعنيني في هذا النطاق هو الانحطاط الذي أصاب اكتساب اللّغات وفي أيّامنا لألف سبب وسبب، فالجامعة لا تستطيع أن تبقى مكتوفة اليدين أمام الجاهل خصوصًا وأنّ الطالب في مجتمعاتنا لا يكفي أن يكون طليقًا باللّغة العربيّة وعلى الأكثر ليس هو ضليع فيها، بل إنّ عليه أن يكتسب أكثر من لغة أجنبيّة وهذا تحدٍّ يشمل الجميع ولا شكّ أنّ من التحديّات التي تتواجد في جامعتنا اليسوعيّة هي المزاوجة بين الاستمرار بالتعليم باللّغة الفرنسيّة والانفتاح على اللّغة الإنكليزيّة كلغة التواصل اليوم في مجال الأعمال.

لاشكّ أنّ هناك سؤالاً أساسيًّا يُطرح أمام الجامعات التاريخيّة وأمام كلّ جامعة : أمام حدّة العولمة الإقتصاديّة والإجتماعيّة وأمام السعي لتوحيد المناهج والبرامج وكذلك حوكمات الجامعات، ماذا يبقى من هويّاتنا ؟ من عمق تاريخنا ؟

في الختام،

لقد سمعنا أكثر من مرّة أنّ لبنان لم يستطع أن يكون ما هو عليه، بالرغم من المآسي التي عاشها، لولا الإسهام العلمي والأكاديمي والفكري الذي قامت به جامعتان مميّزتان

هما الجامعة الأميركيّة في بيروت والجامعة اليسوعيّة (جهاد الزين، جريدة النهار، 2015، الرئيس نبيه برّي في الجامعة اليسوعيّة، 2011). ولقد أضاف أحدهم وهو من كبار الصحفيين اللبنانيّين، أنّ الأوطان تنشأ في العادة بعد أزمات سياسيّة وإجتماعيّة، إلاّ أنّ لبنان كان في تأسيسه ونشأته القليل من السياسة والعراك والكثير من العمل التربوي والعلمي الذي حقّقته المنظومة المدرسيّة التي أسّسها المرسلون الغربيّون والمعلّمون والمحلّيون، وكذلك النشاط الأكاديمي الذي قامت به جامعتان هما الأميركيّة واليسوعيّة. وإنّ صحّ هذا التحليل في الرأي، لما كان فقط مصدر غبطة ومثار تبجيل بل إنّه يضع على كاهل الجامعتين اليوم وعلى النظام الجامعي المتوسّع بشكل عامّ، مسؤوليّة إكمال وتجديد ما قامت به الجامعتان في سبيل لبنان والعالم العربي.

إنّ تأسيس الجامعة كجسم إرسالي دولي على أرض الشرق الأدنى تبنّاه مواطنو هذه المنطقة لأنّ وراء هذا التأسيس كانت ولا تزال رسالة نستطيع أن نوجزها بكلمة خدمة أصيلة للنموّ البشري، والإقتصادي والإجتماعي والفكري لمجتمعاتنا. واضح أنّ هذه الرسالة ما زالت حيّة لأنّ هذه المجتمعات أخذت هي أيضًا على عاتقها تأسيس الجامعات ومؤسّسات التعليم العالي على شاكلة الجامعتين وربّما على الأكثر على شاكلة الجامعة الأميركيّة في بيروت. إنّ النشاط الأكاديمي المتنوّع الذي قامت به الجامعتان في خضمّ أيّام النهضة الأولى وبعدها كان جوابًا على السؤال الذي طرحه الأديب الكبير شكيب إرسلان في نهاية القرن التاسع عشر : لماذا تقدّم الغرب في حين أنّ البلاد الإسلاميّة بقيت متأخّرة؟